ليلة لـ«المصري اليوم» في ظلام الدويقة: جثث متعفنة ..وأصابع تحفر الصخر.. وضباط يتفرجون.. ومجندون متعبون

المصري اليوم

كتب *أحمد شلبي* ٢٠٠٨/٩/١٦

ملايين المصريين يقضون ليلتهم بين زيارات وفسح وفرجة علي التليفزيون، والنوم علي مراتب قطن أو إسفنج أو ريش نعام، وتأتيهم أحلام ربما سعيدة وربما مؤلمة.. ولكنهم في النهاية ينامون في منازل تغطيها أسقف.. قد لا يكون بها تكييف أو مروحة.. ولكنها مكان آمن علي الزوجة والأطفال.. يحميهم من برودة الجو ونظرات الآخرين.. وسط هؤلاء الملايين عشرات من الناس، ستعرفونهم إذا ذهبتهم إلي منطقة الدويقة، يعيشون في الخلاء بين الصخور.. ينتظرون صوت مجند يناديهم «تعالوا إحنا استخرجنا جثة ابنكم».. هؤلاء قضينا معهم ليلة في الدويقة.. رصدنا الألم والأحزان.. والحسرة التي ارتسمت فوق وجوه غطتها أتربة الصخور.

علي بعد دقائق في طريق صلاح سالم، ستجدها.. منطقة عشوائية، مزدحمة تري فيها كل شيء لم تره في حياتك.. عند مدخلها ستجد عددًا كبيرًا من مجندي الأمن المركزي يصطفون في الشارع، بعد أن تناولوا وجبة الإفطار بالتناوب، وخلفهم عدد ليس بقليل من الضباط برتب مختلفة من ملازم أول إلي لواء.. وضعوا عددًا من الكراسي وجلسوا يشربون الشاي «والحاجة الساقعة».

المجندون ومعهم أحد الضباط لا يتركون كبيرة ولا صغيرة إلا وأوقفوها.. يسألون كل من يدخل إلي المنطقة عن هويته وسبب حضوره إلي المكان.. من بين عشرة مواطنين تمكن واحد فقط من الدخول بعد الاطلاع علي البطاقة الشخصية والوظيفة ومعرفة السبب.. وإذا كنت صحفيا أو لك علاقة بالعمل الإعلامي فمن المستحيل أن يتركوك تمر.. سيعللون ذلك بأنها «أوامر»! وفي هذه اللحظة يمكنك أن تبحث عن طريق آخر أو أحد الأهالي ليصطحبك إلي طريق آخر يمكنك الدخول منه.

في حالة نجاحك في الدخول إلي منطقة العمليات ستصطدم منذ اللحظة الأولي برائحة تجعلك تضع يديك فوق أنفك وفمك.. إنها رائحة الموتي، الذين تحللت جثثهم تحت الأنقاض.. ستبتعد قليلاً عن المكان حتي تستعيد توازنك وتدرك أن كارثة ومأساة تعيشها أسر الضحايا والمجندون والعمال في المنطقة، وبمجرد أن تفيق من الصدمة ستشاهد ما لم تره العين من قبل، بالتأكيد ستكون ليلة مختلفة.. تحتاج بعدها سنوات حتي تنسي تلك المشاهد وتستطيع النوم في منزلك.

علي بعد أمتار من المكان، الذي يعمل فيه المجندون ويواصلون جهودهم لاستخراج الجثث، لن تري شيئًا، المنطقة مظلمة، تسمع أصواتًا تعلو تارة وتنخفض تارة أخري.. ما بين مجند ينادي علي زملائه: «تعالوا هنا.. ارفعوا معي» وشاب يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل».. وآخر يبكي: «ابني محمد.. تحت الحجارة مين يطلع جثته».

بين الحين والآخر، تشاهد شعاع نور من كشافات العمال والمجندين يقطع الظلام، ويكشف عن عدد من الأهالي ارتموا علي الأرض واحتموا بالصخور التي قتلت أبناءهم وحطمت أجساد إخوتهم، سألنا أحدهم ويدعي عم «سليمان» عن ذويه الذين راحوا في الحادث دون أن يرفع رأسه إلي أعلي ليري من يحدثه.. تكلم ليس من أجل الإجابة عن سؤالنا.. ولكنه تكلم ليهون عن نفسه - ربما يستريح صدره -: «ابني سعيد وزوجتي وحفيدتي إيمان.. كلهم ماتوا تحت الصخور.. ولم يستخرجوا جثتهم حتي الآن، ٩ أيام مرت علي الحادث.. وأنا أجلس في هذا المكان في انتظارهم.. أحضروا لنا الخيم والطعام والشراب.. ولكن كيف آكل وأشرب وهم تحت الصخور، كيف أتركهم وأذهب إلي الخيمة.. لن أرحل من هذا المكان إلا بعد استلام جثثهم».

شاب آخر جلس فوق صخرة.. لم نشاهد من ملامحه سوي دخان سيجارة كان يشعلها.. دون أن أسأله عن أهله الذين فقدهم، قفز بسرعة من أعلي الصخرة، وأشار بيده إلي المنطقة التي يعملون بها قائلاً: «عاوزين يردموا عليهم.. علشان يروحوا.. علشان يرجعوا بيوتهم ويتركونا نتعذب ونتألم علي أهلنا.. إحنا مش عاوزين منهم حاجة.. عاوزنهم بس يتركونا نبحث عن أهلنا تحت الصخور بمعرفتنا».

إقتربنا قليلاً من المكان.. الرائحة تزداد صعوبة.. عدد من الأهالي يجلس علي الصخر.. ومجندون وعمال أمامهم يشربون المياه.. وظلام تقطعه الكشافات بين الحين والآخر. وسيارات إسعاف تقف علي بعد أمتار من المكان، تنتظر أن يخرجوا بجثة من تحت الأنقاض، لتنقلها إلي مشرحة زينهم تمهيدًا لتسليمها لذويها.

مرت ساعة ونصف الساعة تقريبًا من الليل، المشهد كما هو مجندون يرفعون الأنقاض، ومن خلفهم وإلي جوارهم أهالي يساعدون وينتظرون، فجأة انطلق صوت أحد الشباب: «فيه حد هنا»، تجمع العمال والمجندون، تعاونوا حتي أخرجوا جثة لطفل في العقد الثاني، عدد كبير من الأهالي الذين ينتظرون جثث ذويهم، التفوا حول الجثة، طلبوا من العامل الذي يمسك بكشاف النور أن يقترب قليلاً ليتعرفوا علي هوية الجثة بعد أن غطتها الأتربة.

إلا أن صوت الضابط أنهي كل شيء، وطلب من المجندين نقل الجثة إلي سيارة الإسعاف.. وطلب من الأهالي التوجه للمشرحة للتعرف علي الجثة.. فصرخ أحد الأهالي: «إحنا مع كل جثة هنجري وراها إلي المشرحة.. ولو اتضح إنها لا تخصنا.. نعود إلي هنا مرة تانية.. ايه العذاب ده.. هو انتوا والزمن علينا.. حرام عليكم».. انطلقت سيارة الإسعاف بالجثة إلي المشرحة ليعود الحال إلي ما كان عليه من جديد.

خلف صخرة كبيرة، شاهدنا عددًا من العمال يخلعون أحذيتهم، أتعبهم العمل طوال النهار والليل.. أكدوا أنهم يعملون بأقصي جهد لديهم، يقدرون حجم المأساة التي تسكن في قلوب الأهالي.. إلا أن الرائحة بدأت تصيبهم بالألم.. دقائق وعاد العمال إلي مكانهم من جديد.. يرفعون الأنقاض علي أمل الوصول إلي باقي الجثث.

وفي المقابل، عدد كبير من الأهالي لم تهدأ قلوبهم لحظة، انتشروا في المكان.. كل يلف حول منزله المنهار، يحاول أن يستخرج جثث ذويه من تحت الأسقف المنهارة.. يحفرون بأصابعهم تحت الصخور.. ربما يجدونهم، جاءت الثانية صباحًا، واعتقدنا أن الأهالي سيعودون إلي الخيم التي وفرتها لهم المحافظة ليستريحوا فيها حتي الصباح، علي أن يعودوا في اليوم التالي بحثًا عن الجثث، انتظرنا تلك اللحظة التي يترك فيها الأهالي المنطقة، إلا أنها لم تأتِ.. ظلوا يحفرون في الصخر طوال الليل..

سألناهم.. فأجابوا: «كيف نترك أهلنا تحت الأنقاض ونستريح في الخيم؟! سنرحل بعد أن ندفهم في مقابرنا».. لاح نور الصباح علي المكان والمشهد كما هو.. مجندون متعبون يبحثون عن الجثث، والأهالي يحفرون بأصابعهم علي أمل.